ليّ احدى يديه؛ وان لم يكن لذلك، فعلى الاقل لكسر اصبعين في يده اليسرى، وثالث في يده اليمنى ـ وهذا اضعف الايمان. وهو ما لم يحدث حتى الآن.

فعلى الصعيد التنظيمي، اولاً، تبدو منظمة التحرير الفلسطينية، وعلى الاقل لاغراض ادارة الصراع مع الاحتلال الاسرائيلي، وكأنها امبراطورية ضخمة اشبه بأخطبوط له مئات الاذرع، منتشر في انحاء العالم كافة. بل تكاد لا تجد مكاناً الا وفيه منظمة تحرير خاصة به، بشكل او بآخر. ويكفي ان نلقي نظرة سريعة الى الاجهزة المهجرية الفلسطينية العديدة والبشر الكثيرين المكدسين فيها، لندرك ان هنالك ما يكفي من الرجال (والنساء) والمال (مثلاً، المجلس الوطني والاف حضوره، من جهة، وتكاليف تذاكر سفرهم، من جهة أخرى)، وما يكاد يكفي من العقول، ليس فقط لادارة ودعم صراع مستمر مع المحتل الصهيوني، بل، ايضاً، لحفظ جزء من هذه القوة في البراد، لحين الحاجة، وتوزيع شيء على الجيران، أيضاً. وان كانت هذه القوى لا تُستغل كما ينبغي، وتُترك، احياناً، لتذهب هدراً وتسمن وتترهل، فان هذا ليس هو الواقع المرغوب فيه، بل ان هذه هي المشكلة التي ينبغي حلها. فيفترض في منظمة تحرير ان لا تتحول، اخيراً، وفي كثير من نواحيها، الى «اونروا» الرقم ٢.

اما في الميدان، ثانياً، فان الارضية الجماهيرية مهيأة تماماً، منذ سنوات عدة، لشن صراع واسع النطاق ضد المحتل الصهيوني. فالاحتلال الذي ينهي، الآن، سنته العشرين، ساهم، بمجرد وجوده، تماماً كما فعل قبله اكثر من احتلال في اكثر من منطقة، بزرع بذور الكره له، التي كبرت تدريجياً لتخلق ارضية مواجهة نموذجية. فخلال هذه السنوات طرأت تغيرات مهمة، على اصعدة عدة، في المناطق المحتلة، لعل ابرزها بروز اجيال جديدة من المواطنين الفلسطينيين، ممن كبروا تحت الاحتلال، او ولدوا بعده، وتعرفوا، تدريجياً، على كل مساوئه ونقاط ضعفه وقوته، وباتوا اكثر اطلاعاً على «نظامه»، وبالتالي اكثر معرفة بأساليب مقاومته. وتجد هذه الوقائع تعبيراً ملموساً وواضحاً للغاية عنها في المواجهات المستمرة، على اكثر من صعيد، القائمة بين السكان الفلسطينيين والاحتلال، على شكل اضرابات واحتجاجات وتظاهرات ورشق بالحجارة وطعن بالسكاكين، وما يتبعها من اعتقال وسجن وحملات قمع وتنكيل واعتداءات من قبل غلاة المستوطنين والجيش، وقتل فلسطيني هنا وآخر هناك. ويبدو كأنه ما ان تنتهي حالة من هذا النوع حتى تبدأ أخرى.

ولا شك في انه لو عرضت مثل هذه الوقائع على «خبير» (ولا ندعي خبرة في هذا المجال) في ما يسمى «حرب التحرير الشعبية طويلة الأمد»، وهو الشعار الذي كان، ايام زمان، الكثيرون من رجال المقاومة، او من كان يتمسح بهم او يُنظّر لهم، يلوكونه صباح مساء، حتى تبخر واختفى، ولم نعد نسمع به منذ سنوات، لأفتى بأن هنالك «ماء» نقياً وعذباً، يستطيع «سمك» كثير ان يعيش فيه. وبموجب نظريات تلك الحرب، وبمدى فهمنا لها، «الماء» يعني الجماهير المتعاطفة مع المقاومة، و «السمك» هم رجال المقاومة النشيطون؛ اي انه من المفترض، في ظروف كهذه، ان تكون هنالك مقاومة نشطة وفعّالة، «دي لوكس»، في المناطق المحتلة. الا ان هذا بالذات، كما هو ملموس جيداً، غير موجود.

ووجود مقاومة نشطة في المناطق المحتلة، او انعدام وجودها، لا يحدث صدفة؛ فالنشاط الذي يبذل من اجل ذلك او، على العكس التقاعس، يلعبان دوراً مهماً للغاية في هذا الصدد. وحتى تتضح المسألة، نورد مقارنة بين حالتين. فخلال فترة غير قصيرة تعرضت مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في بيروت لهجمة دنيئة وشرسة، بهدف ابادتها بمختلف الوسائل، من خطف وقتل